التجربة الصوفية في شعر ناصر لوحيشي" مدار القوسين" أنموذجا

Sufism experience in Nacer Louhichi poertry,"The Orbit of the Two Arcs" as a model

حفيظة سوالمية

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)، hafidasoualmia04@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/06/24 تاريخ القبول: 2022/11/06 تاريخ النشر: 2022/11/14

الملخص:

تميز الشعر المعاصر في الجزائر بالثراء والتنوع ومحاولات التجريب والتجديد، وهذا التميز في حقيقة الأمر نتيجة منطقية تمخضت عن واقع مضطرب وأوضاع غير مستقرة في الغالب، وهو ما أفضى بشكل عام إلى حالة من الرفض والإنكار الصارخ لهذا الواقع وإكراهاته حينا، أو حالة من الاستسلام والإحباط المعنوي حيث يتصاعد الإحساس بضرورة تفريغ هذه الشحنات النفسية والصراع الداخلي المحتدم في ذوات مبدعة لم تجد أحسن من البوح الشعري متنفسا لها. وقد وجد هؤلاء المبدعون ضالتهم في تجربة "التصوف الشعري"، الذي كان ملاذا شعريا مناسبا من أجل التعالي والسمو، وتجنب الارتظام والانكسار والخيبة واقعا وتخييلا. والشاعر ناصر لوحيشي واحد من الشعراء الجزائريين الذين وضعوا بصمة في "تجربة التصوف الشعرية الجزائرية المعاصرة" من خلال ديوانه مدار القوسين الطافح بنزعة التصوف رمزا ولغة وفلسفة ورؤيا.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجزائري، التجربة الصوفية، الرمز الصوفي، التصوف الشعري، ناصر لوحيشي.

Abstract:

Contemporary poetry in Algeria is distinguished by its fertility, diversity, in addition to experimenting and renewing attempts. This distinction is actually a rational result of turbulent life and often uneasy conditions which led to a state of rejection and denial of that reality and its constraints, or a state of surrender and moral frustration, where the feeling of the need to unload that psychological charge and violent internal conflict in creative selves who did not find better than poetic inspiration shaped by the experience of "poetic mysticism" which was a suitable poetic model for transcendence and sublimity, and avoiding disappointment either in reality or imagination. Accordingly, the poet Nasser Louhichi is one of the Algerian poets who left an imprint in "Contemporary Algerian Poetic Sufism Experience " through his Diwan 'the orbit of the two arcs' which is full of Sufism symbol, language, philosophy and view.

Key words: Algerian poetry,sufi experience, sufi symbol, poetic Sufism, Nacer Louhichi.

المؤلف المرسل: الاسم الكامل، **الإيميل:** hafidasoualmia04@gmail.com

1. مقدمة:

شهد الشعر الجزائري المعاصر مخاضا جديدا دام ثلاثة عقود أو زد عليها قليلا، انفتحت فيها التجربة الشعرية على تيارات الحداثة الشكلية والمضمونية، حيث وُجد الشاعر الجزائري في بحر لجي تتجاذبه طروحات إيديولوجية متعددة، ويكتنفه اختلاف في الرؤى يتراوح بين النضال والصراع الذي وسع الهوة بين التيارات والبنى السياسية والفكرية، فمن عشر عجاف لفت الجزائريين في إرهاب أسود، إلى عشر سمان أربكتهم بخوف غامض توجسوا به مستقبلا باهتا، و عشرٍ أُخر أنهكتهم باقتصاد هش جاء بعد حراك شعبي خريفي، خالطه فيروس أتى على خضار ويابس..

إنه زمن الشاعر المنهك والمناضل في الآن نفسه، الذي دخل معترك الحياة بين مغامر وموارب، بين صخب وخفوت، في محاولة للتشكل بمعطيات التجدد والتجديد في ظرف عسير على البلاد خلف كوكبة من الشعراء الممتزجين بأنساق ثقافية خلفها ماض حافل بالأمجاد وحاضر يحاول صنعها..

إن منطلقنا الأول في هذه الدراسة هو أن لا وجود لنتيجة دون سبب، وكذلك الشعر؛ هو ممارسة تعكس ثقافة الشاعر ونوازعه وقناعاته، فإذا قرأنا شعرا ذاتيا فلأن صاحبه مغمور النفس في وجدانيات تحققت بحس مرهف وروح شفيفة، وأما ما ينضحُ وطنيةً وصرخاتٍ نضالية فصاحبه ثائر لا يستكين، وتلك النصوص المأساوية فممزوجة بشجن الذات المكلومة، وأما من جرفه تيار السياسة والإيديولوجيا العارم فقد ركب موجة الطبقة المثقفة أيام الانفتاح الأولى بقناعات أغلبها مستورد وأفكار مشوهة لا تشبه ثقافته الأم..، إننا نقرأ هذا التنوع في المنجز الشعري الجزائري المعاصر، والذي أضحى غامرا للذات عامرا بالحياة.

2. دلالة التوجه الصوفي عند ناصر لوحيشي:

إن الشاعر ناصر لوحيشي واحد من هؤلاء الشعراء الذين آثروا الخلاص من الوقوع في مغبة الصراع الإيديولوجي، والتعفف من هذا الصخب الذي عم أجواء الحركة الشعرية الجزائرية المعاصرة تشكيلا ورؤيا، إنه شاعر من الجزائريين أبناء الكُتَّاب ببساطته وأصالته، والزاوية بأسرارها وغموضها، إنه من الذين آمنوا بأن مشكلة أبناء هذا الوطن الحقيقية هي أنهم تركوا ما يجمعهم وتمسكوا بما يفرقهم، وفتحوا الباب لاستلابهم وأفلتوا مذهب الأجداد الذي حمانا وحفظ هويتنا عصورا من محاولات الطمس والتشويه.

وأما ناصر لوحيشي فشاعر آثر النضال الشعري الهادىء، باستقصاء مستمر للذات في استكناه جوهرها وإثبات كينونتها وتأصيل وجودها، بشعر شديد الصمت مفرط البياض خافت النبرة ذبذبة وإيقاعا، إذ لم يكن بحاجة إلى الصراخ لأنه يحاور الذات ويخاطب الوجود في معانيه العميقة، شعر لا يصدره لوحيشي إلى الخارج بل تهمس به ذاته إلى ذاته وذوات أخرى تعيش عوالم ترتقي وتسمو إلى المثالية حينا والأحلام حينا آخر في براءة باتت غريبة في زمن الصخب والفوضى..، يقول في نص بعنوان "يا موقد النار":

يا موقد النار حدثني حديث روًى
أسدل لثام المسا واكشف لنا الحُجُبا
يا موقد النار يا كانونُ ألفتنا
إنا حزانى فهات النار والحطبا
.....
يا موقد النار جمّعنا وإن حلما
فربما ارتدّ طرف الشوق مغتربا
متى تُجمّع أورادي وأوردتي
متى يطلُّ علينا كلُّما ذهبا؟
بوركت يا موقد الأفراح ليت لنا
من طقطقاتك زادا لامس الشُّهبا
علقت سرَّك مذ أدركتُ قافية
قصيه يا جدتي إلفا ومُلتهبا
أدميت يا "وابُ" و يا "تاتُ" الشجا حُلُمي
صعّدت ظلّتنا، إن الغمام نَبَا.

يبحث لوحيشي في هذا المقطع الشعري وفي غيره عن هدوء العيش وصفوه ولو أمام موقد نار، وهل هذا إلا التصوف في عمقه وجوهره؛ ألم يشرح الزمخشري وآخرون التصوف بأنه مأخوذ من الصفاء.

"والصفاء هو خلوص الباطن من الشهوات والكدرات" (عبدة،1992، ص11) وطهارة النفس من كل ما هو فاسد، وخلوها مما قد يعكر نقاءها، سواء كانت أقوالا أو أفعالا قد تدنس نفس الإنسان وتفسدها.

في حين اهتم بعض العلماء في بسطهم لمفهوم التصوف على الشكل الخارجي للإنسان من حيث اللباس خاصة، فقيل إنه مشتق من الصوف، وأما بعضهم الآخر فاهتم بجوهر النفس ودواخلها، فقيل إنه من صفاء السريرة، وهو نقاء الروح وسموها إلى ما هو أرقى من الأخلاق والصفات البشرية، التي يتضارب فيها الخير والشر والرغبات النفسية إلى صفات روحية أخلاقية سامية والأخذ بكتاب الله عز وجل والوفاء له واتباع سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقيل أيضا: هو: " لحوق السر بالحق، ولا ينال ذلك إلا بفناء النفس عن الأسباب لقوة الروح والقيام مع الحق." (سعران ،1989، ص18) فالتصوف هنا بمعنى الحق.

وآخرون نسبوه إلى أماكن وأشخاص؛ فقيل إنه مأخوذ من أهل الصفة أو صوفان، أو كما تسمى دكة الأغوات وهي مكان في مؤخرة المسجد النبوي الشريف وكان أهل الصفة همهم الوحيد تعلم القرآن، وعليه فإن اشتقاق اللفظة أخذ أشكالا عديدة ولكل منها ما يفسره.

وأعتقد أن التجربة الصوفية عند ناصر لوحيشي لم تكن سعيا منه ـ حال بعض الشعراء ـ إلى التميز والابتكار والخروج من النمط المتعارف عليه وهو القصيدة العمودية والأساليب القديمة، ولم يكن الرمز الصوفي أحد وسائله لتنويع أسلوبه أو محاكاة وترجمة واقعه، ولكنه مزيج متكافئ متجانس متفرد من الزهد والرؤيا الفلسفية والتشكيل.

يتخذ ناصر لوحيشي من التجربة الصوفية في شعره حلا فرديا لتعاسة الواقع، وبؤس الحياة من خلال رفضها أحيانا والبحث عن بدائل لها أحيانا أخرى، ويتجلى ذلك في شيوع معاني الإحساس بالغربة والظمأ النفسي لمعانقة المطلق في المتن الشعري، وبما أن الرؤية العادية للأشياء لا تصل إلى إدراك مطلق كان على الشاعر أن يسلك مسلك الحدس الذي ينشأ نتيجة اتحاد مباشر بين الذات والموضوع" (بوقصة، 2009–2010، ص 22)، فيحاكي الشاعر بذلك الصوفية، ويجعلها المنفذ الوحيد للهروب من الواقع المفروض.

3. جمالية اللّغة الصّوفية في شعر لوحيشي:

اللغة ضرب من العلامة و الإشارة، واللغة الفنية في الشعر تجنح إلى الترميز و الإيحاء وتنحرف عن الاستعمال المعتاد في الحياة اليومية وعن الاستعمال العلمي المحدد، وقد أبدع

المتصوفة منذ القديم قاموسا لغويا خاصا بهم." (إبراهيم، ص 55)، يستلزم التفسير والتأويل لفهمها. وعليه فإن:" للمتصوفة لغتهم الخاصة التي حاولوا التعبير بها عن الأغراض و المرامي الذوقية التي اختصوا بها و تعارفوا فيما بينهم على الدلالات الروحية في اللفظ الواحد فيها." (خوالدية، 2014، ص23)

فالمتصوفة يعتبرون اللغة المتعارف عليها غير قادرة على التعبير و أنها قاصرة من حيث الحمولات و المعاني، وأن لغتهم تتجاوز المعاني السطحية وتعتمد على الذوق، فالكلمة عندهم لها دلالة مغايرة تماما عن معناها الأصلي المتعارف عليه، مما يصعب فك شفراتها، كما أن لها إيحاءات لا يمكن حصرها، لذلك تميزت هذه اللغة بسحر مميز وعميق في القراءة، كما أن إدراك الشاعر المعاصر لحقيقة "صعوبة المعرفة المباشرة، جعله دائم التفكير في العثور على وسائط لغوية وفنية، تمكنه من استكناه ما خفى في الذات والوجود في آن واحد، وقد أفضى هذا البحث الدائم إلى اكتشاف الرمز، فهو وسيط لما فيه إيحـــاء بالتجربة"(كعوان، 2009، ص 10)، لذا قال الحلاّج: " من لم يقف على إشاراتنا لم ترشده عبارتنا." (خوالدية، 2014، ص 29)

والواضح أن لوحيشي في تصوفه الشعري ينفتح لغويا من خلال التحرر من قيود التعبير باللغة التقليدية إلى لغة أكثر تنفيسا عما يجول في خواطره تجعله أكثر تحررا من ضغط تلك القيود.

4. جمالية الرمز الصوفي ودلالاته في ديوان "مدار القوسين":

1.4. رمز المرأة:

ظلت المرأة على مر العصور مصدرا لاستلهام الجمال والحب الذي يلتهب له القلب وتهمس له الأحاسيس، فتوصف بموطن الرفق وراحة النفس، ومن ثَّمَة كانت المرأة تيمة للعشق والحب والغزل، وعليه " اشتغل الشعراء بهذا الكائن الجميل بوصفه مُعادلا للتجلي الإلهي منفصلين بذلك عن الوقائع متصلين بالعالم المرئي".(إبراهيم، ص 11)

فالمرأة رمز له دلالات متعددة وخاصة عند الصوفية، وإذ تتسم بالرفعة و السمو فهذه المكانة قد تميزت بها انطلاقا من دلالتها على الذات الإلهية، فهي على حد قول الباحثين بالضبط :"رمز الطبيعة الإلهية، فهي مصدر خصوبة وعطاء، وصورة المرأة في القصيدة الصوفية من أبرز رموز التجلي، وقد كان لذلك انعكاس واضح في علاقة الصوفي بالله،

فهي علاقة غنية بزخم عاطفي انتقلت من عاطفة الرجل اتجاه المرأة إلى عاطفة اتجاه الله، ومن ثم لم تعد المرأة سوى رمز للنفس التي تصبح معرفتها مدخلا لمعرفة الله والكون."(حمادة، ص285)

وعليه فقد عبر الشعراء الجزائريون الصوفيون المعاصرون كغيرهم من شعراء الصوفية "عن حبهم الإلهي متخذين من المرأة رمزا للتعبير عن هذا الحب والشوق واللهفة، واستغراقهم في هذا الحب باعتمادهم القاموس الصوفي وإن كانت هناك تعابير أخرى من الغزل العادي."(حنبلي، 2018، ص265.)

وشاعرنا ناصر لوحيشي بتجربة الصوفية المتفردة بعباراتها ومعانيها، له من القصائد التي كاشف فيها عن حبه واشتياقه للمرأة المحبوبة التي يبحث عنها في حاضره كما في ماضيه، وهي طبعا ليست امرأة عادية، بل امرأة مميزة تتجلى ملامحها في قصائده إما صريحة وإما معبرا عنها بضمير الغائب " هي".

ويستدعي التعرف على هذه المرأة الوقوف عند إشارات إليها ضمن بعضٍ من قصائده التي جاءت في ديوان "مدار القوسين" وأولها قصيدة "شامية النبرات":

شامية النبرات.. يا فجرا دنـا
يا من نجت من حلكة النسيان
البر طبعك، والرجاء مؤمـل
فيك السناء، وفرحة الأزمان
الهمس منجاة، وطيفك حاضر
ويداك شطآن النـدى الريّان(لوحيشي، ص 31-32)

استطاع الشاعر ناصر لوحيشي في هذا المقطع الشعري أن يجمع كل صفات المرأة عند المتصوفة من رقي ورفعة وسمو وخلود أبدي هي رمز الحب المرغوب، هي الغاية المراد الوصول إليها، وقد وظف الشاعر أسلوب "النداء " لدعوة تلك المحبوبة التي لا تفارق مخيلته ولا تمحي من ذكرياته، هي الفرحة وكل صفات الكمال الموجود معه في حياته، هذه المرأة التي تمثل كماله مع الذات الإلهية وتجسد سعيه الدائم في البحث عن غاية أسمى ومقام أعلى.

ويتضح ذلك أكثر في قصيدته الموسومة "مدار القوسين ":

رتّبت أمتعتي الآتي... فعطّلني
طيف من المبتدا الوهمّي تسهيدا
لقد لقينا من الأسفار منصبةً
والشوق يسلك في بحري أخاديدا (لوحيشي، ص45-46)

ومن خلال هذا المقطع تتضح أكثر ارتباط الشاعر بهذه المرأة، فهو يرتقي بروحه " إلى معارجها فتصله فتنتها بالملكوت مذهولا، وعليه من غبار أسفار العشق مما يجعله يغرق في شطحه من شطحات الصوفية وهي الاغتسال الذي يظهر معادلا في قوله "نافضا من غبار الزمن الخالي." (بركات، 2007، ص8)

وكذا في قوله: " والشوق يسلك في بحري أخاديدا"، يختار الشاعر بحره الذي يسلكه من أجل الوصول إلى الذات الإلهية من خلال ذلك الشوق الذي يشعر به والذي يجرفه إلى تأمل الملكوت من خلال المرأة، و يبدو لوحيشي في هذا المقطع الشعري وفي غيره محبا للتميز والكمال باحثا عن الحقيقة وعن الإنسان الحقيقي فيه، وهذا ديدن المتصوفة إذ يعتبرون " الإنسان هو البحر الحقيقي وحين يحب الإنسان يتحول إلى حقيقة البحر وهو بحر الحب". (بهجت، 1984، ص 10)

وما لفظ الشوق والبحر إلا دليل على أن الشاعر في طريقه للوصول إلى مسلك السالكين في الفناء وفي حب الله عز وجل.

وفي قصيدته "الصدى المخضل" اختار الشاعر مفردة "المخضل" وتعني الصافي النقي الخالص، وهو هنا يبحث عن حياة نقية خالصة، فقد مل حالة الصراع مع ماضيه وحاضره، ويريد أن يخرج من بوتقة الواقع المتناقض الصعب باحثا عن متخيل صوفي أجمل وأصفى، إذ يقول:

"أعيديها ابتسامات،،
و رحلات،،
وشوقا في نواديها ،،
وقافية شرودا رحت أستفتي سواقيها
أعيديها ،،
أعيديها ،،

فإنَّ سفينة الأشواق ،،
أرست في محطّات المدى العذريّ
فابتلت مجاريها ،(لوحيشي، ص 54)

فالواضح مدى تعلقه بالمحبوبة وتجلياتها المتسامية عن الحسية ارتقاء إلى حب إلهي متعالي لأن :" الشوق والحنين والتعلق والافتتان هي الروابط الرئيسية التي شدت الصوفية إلى المرأة التي ترك غير بها عن ناظره مجالا للحلم وللخيال الخلاق، وهو الخيال الذي شكل المرأة من الحجارة المكرمة في تجارب الغزل."(إبراهيم، ص 170)

فانتقاء الكلمات وإشراق العبارات عند ناصر لوحيشي يدل على نفسه الهادئة الصادقة المتسامية، التي تبحث عن الطمأنينة الخالصة والسعادة المطلقة بعيدا عن كل ما يحيط بها من صراعات الموجودات في الكون.

وفي قصيدته "غد وعبير" يقول:

أهديتني شفقا وحبرًا ألمعا
أهديت سرّيَ لحظةً فترصَّعا
يا فاتح المكنونِ لطفًا إنّني
أسمو بأنسك مقبلاً كي أرجعا(لوحيشي، ص109)

"تأخذنا الأنا الصوفية عبر هذا النص إلى تجليات التواصل والوصول ما بينها وبين المحبوب أوالكلي الجمال وعبر رؤية صوفية مسكونة بالحب الصوفي المتسامي عن الحسية، فتعكس الأبيات حنين روح وشوقها كشعلة جعلت هذه الذات الصوفية بين البقاء و الفناء والشوق و الوجود."(بركات، 2007، ص 177)

فالشاعر ناصر لوحيشي يسمو بالصعود إلى الذات الإلهية ويعتبرها إلهامه الشعري ويريد الرجوع إليها، وهذا ما عرف عن المتصوفة إذ هم في سفر مستمر والسفر عندهم هو توجه القلب إلى الحق.

يسعى ناصر لوحيشي بذات حالمة إلى الوصول إلى الذات الإلهية التي يتحدث عنها بضمائر المخاطب والغائب "هي"، وتكرار الضمير عنده مؤشر على الذات المقدسة التي تبدو في النص منبعا للجمال والحنان.

ويعد توظيف رمز المرأة عنصرا جماليا يضع المتلقي في دائرة التفكير اللامتناهي في دلالات وأبعاد هذا الرمز، كما يدفعه دفعا إلى إعمال خياله بشكل تتزاحم فيه الصور والمعاني والإيحاءات ،لأن الحب الإلهي عميق يُغرق في الشوق والرجاء والحنين، ويجعل المحبوب دائم البحث عن الحبيب، وهذا ما كان من ناصر لوحيشي الذي ما يفتأ يذكر المرأة في قصائده باحثا من خلالها عن السمو والتطهر والتعالي بها ليتناسى واقعا مرضيا يجثم على صدره فلم يعد يطيقه، فالمرأة عنده رمز للتجلي و النقاء والصفاء والاتحاد مع ذاته في عالم أكثر هدوءا وسكينة.

2.4 رمز الطبيعة :

احتفى الشعر بالطبيعة أيما احتفاء، فتغنى بها الشعراء ووصفوا مظاهرها وجمالها، إلا أن شعراء الصوفية اختلفوا في وصف الطبيعة في أشعارهم عن الشعر التقليدي الموروث، والطبيعة من الرموز التي دل بها المتصوفة، وذلك لأنهم ينظرون إلى كل ماهو موجود في الكون أو في الطبيعة على أنها مصادر للإعجاب وتجَلِي الذات الإلهية وجمال خلقها وإبداعها وقدرتها.(بولعشار، ص298)

إن التجاء الإنسان إلى الطبيعة ناتج عن ارتباط فطري طبيعي بالأرض فهي موطنه وأصله ومآله، وكذلك الشعراء الذين "اتخذوا من الطبيعة رمزا للتعبير عن أحوالهم، ذلك لأن أصل الإنسان جسد وروح، فالروح تنسب إلى الله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ (الحجر:الأية29)، فأصلها إلهي مقدس أودعها الله في قالب الجسد، هذا الجسد المنتسب كذلك إلى الطبيعة "التراب" من حيث الخلق والمنشأ، وكل من الروح والجسد مغتربان عن وطنيهما، فهما في حنين دائم إلى الأصل الأول.(حمادة، ص305)

ومن ذلك فالطبيعة منهل باذخ برموز وإيحاءات يستقي منه المتصوفة لغتهم للتعبير عن جمال الذات الإلهية، وارتقاء الروح، فهم يعتقدون أن جمال الطبيعة هو جمال الحق المرتبط بخالقها، وهذا ما أراده ناصر لوحيشي في ديوانه الذي لا يكاد تخلو نصوصه من رموز الطبيعة مثل: الفجر، الطيور، الماء، الربيع، الظلام، الريح، السحاب، الزهور، الورود، السنبلة، القمح، الفصول، المطر.. وغيرها، وهي رموز تصب في وعاء واحد وهو تجسيد للطبيعة بكل ما فيها، وذلك من أجل بلوغ أعلى درجات التذوق والشعور بالجمال الإلهي "هذه

المفردات والعناصر والعلامات تمنحه الكثير من الغنى والتنوع في شعره، وذلك الثراء يعطي للنص محفزات الألف والجذب ويعطيه دفقا من التشبع والرواء، فهو يعمل على أسطر المكان والأشياء."(عويدان وميزان، 2019، ص68)

يلوذ ناصر لوحيشي بالطبيعة من فوضى الحياة وضنك العيش وثقل الهموم، إنها مكانه الهادئ الذي يستدرج مكنوناته، ويحرك أحواله النفسية المبهمة التي تتجسد في حالات الحزن والكآبة والإحساس بالضيق، وكذا حالات الفرح والسرور، إنه لجوء مطلق إلى الطبيعة بعذريتها وبـ" تأثيرها على الشعور والخيال والإحساس والفكر، حسب اللحظة النفسية التي يكون عليها الشاعر." (عويدان وميزان، 2019، ص69)

يقول في نصه "من يطوي تلك الأبعاد":

مطر
والغيث سيخلف موعده ليلا
والموسم غيب بدلته
يا ريح الحلوى
في صغري
يا ليل الأمس متى قمري (لوحيشي، ص 35-36)

يتبين هنا ذلك المشهد الهادئ للمطر وتعلق الشاعر به إلى درجة حتى أنه ينتظره في ليله، ويصف الريح على أنها الحلوى فيسترجع ذكريات الماضي من خلال المشهد الجميل في الطبيعة، وهو المطر، الذي قد يكون مرعبا يبعث على الكآبة، أو مصدر سعادة كعهد الشاعر به، والمطر عند الصوفية هو الخير والأمل الخصب، والنماء، وأما الليل فهو الآسر المقدس الذي يتبدى نوره بالصلاة والعبادات، والذي يبزغ بعده فجر الحياة ويرتسم الغد الجديد.

و"مرسلات الجنى " قصيدة يترنم فيها بعناصر الطبيعة متناغما معها في فخر واتحاد قائلا:

وطيور الأصيل تشدو حنينًا
وعبير الصّدى غدٌ وصباحُ
وقوافيَّ سامقاتٌ تداني
خافقات السُّها فلا تستباح (لوحيشي، ص 50)

ومع رحلة البحث عن حقيقية الحياة وأعماقها المتخفية وراء عتمة الروح وحزنها وكدرها، يلامس ناصر لوحيشي أدق حالات الحنين والولع والشوق، من خلال تمظهرات الطبيعة (طيور الأصيل، عبير الصدى، الغد والصباح، خافقات السُّها..)، وهو ما يحدث مع المتصوفة في رحلة بحثهم المتواصل للاتحاد مع الذات الخالقة.

وهكذا ينفتح نص ناصر لوحيشي الشعري على المدى باحثا عن عالمه الروحي وفضائه الداخلي الذي يستشعر فيه الهدوء والراحة والسكينة، حاله حال المتصوف، دائم الحيرة والسؤال يبحث باستمرار عن الذات الإلهية، ومبتغاه أن يصل إلى المقام الذي يمكنه من كشف سر هذا الكون من أجل الوصول إلى المعرفة الحقة، وبذلك الوصول إلى الحب الخالد الحقيقي وهو حب المعبود في علاه، يقول مثلا:

إنني صغت خاتمتي...
لحنين البلد
دثّريني بفاتحة البوح ...
أيتها اللحظة الفارقة
يحاصرني الموج والشاطئ الرطب
والسمكات التي رتبتها
يد راجفة(لوحيشي، ص 120)

من أجل ذلك فالطبيعة شفرة الصوفي يكاشف فيها بلغة ذات حدين، الأول منها تمثله تلك التجليات المتنوعة للذات الإلهية في مظاهر الطبيعة الجامدة أو الحية، وأما الثاني فتمثله تلك الترجمة الدقيقة لهذه المظاهر والتي تجعل منها روحا علوية وحكمة إلهية مشرقة.

إن البحث عن عالم أكثر سلاما هو مبتغى شاعرنا لوحيشي الذي لا يكل ولا يمل جيئة وذهابا بين ماض وحاضر يفشل في الغالب كلاهما من خلال الرمز الطبيعي في وضع الشاعر على الطريق الذي يوصله إلى عالم آخر أكثر اتزانا وأمانا وجمالا.

3.4. رمز الأعداد والحروف:

من يقرأ شعر ناصر لوحيشي يلمح خاصية الترميز بالأرقام والحروف؛ وأما الأعداد فـ" احتلت مكانة رمزية لدى الصوفية وأصبح لكل رقم من الأرقام رمز يرمز به لشيء خفي لا يعرفه إلا العارفون الواصلون، فتعددت بذلك رمزية الأرقام، ودلالتها ودورها في التصوف

الفلسفي خاصة في تكوين مراتب الولاية الصوفية، ومن هذه الأرقام : واحد، اثنان، أربعة، سبعة، اثنا عشر، أربعون ..."(خالد، 2016، ص 351)

وهذا ما ذهبت إليه العرفانية الصوفية، حيث كانت لها تفسيرات للعدد، وأعطت له دلالات باطنية غير ظاهرة، وقد اهتم بها الشعراء المتصوفة في الجزائر نظرا لجماليتها الفنية وأثرها في المعنى إذ تجعل المتلقي في حالة ذهنية من التفكير والبحث والعودة إلى دلالاتها ومحاولة فك غموضها ورمزيتها.

وكذلك فعل الشاعر لوحيشي لما اتخذ من رمزية العدد لغة للتعبير عن معانيه وأحاسيسه، ويتضح ذلك من خلال قصيدة له بعنوان: " نغمة...في طريقي إلى " قالمة " يقول فيها:

فالعيس قد ترتوي بعد نهرين
أو بعد يومين ،،
أو مرّة في السنة !!
لست أعرف بخل السما...
ولكنها الأربعون
ترى هل تحسستم الآن هذا الظما ؟ (لوحيشي، ص74)

ذكر هذا العدد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اَتَّخَذتُّمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ سورة البقرة : [الآية : 51] وفي آيات* أخرى عديدة، ونجده في عديد الأحاديث النبوية الشريفة وقصص الأنبياء والرسل؛ و'أربعون" عدد له دلالته في القاموس الصوفي، فيراد به: " أربعون من الصوفيين النجباء، العارفين هم المشتغلون لحمل أثقال الخلق وإصلاح أمور الناس، المتصوفون في حقوق الخلق لا غير ذلك، لأن كل قوة بشرية لا تفي بحمله تجد هؤلاء الأربعين النجباء قد تخصصوا في حمل أثقالها." (خالد، 2016، ص 382)

وقد تعددت دلالات العدد أربعون، ووجدت وأرقاما أخرى مكانها ضمن الفكر الصوفي لارتباطها بالتراث الإسلامي، وبتوظيفه لهذه الأرقام الدالة يتأكد تأثر الشاعر ناصر لوحيشي بالموروث الصوفي، ويتبين مدى تشربه من معاني الصوفية وأخذه من معارفهم وتعاليمهم وكل دلالاتهم الباطنية.

كما وظف الشاعر الرقم سبعة من خلال قوله في قصيدته "أختصر راحتي":

هي السبع ينساب شعري
ليذكر في آخر الصيف
معزوفة الشك والنظرة الحارقة (لوحيشي، ص120)

وللعدد سبعة وغيره من الأرقام والحروف كذلك مما وظفه الشاعر على غرار المتصوفة تفسيرات ودلالات في المعارف الصوفية.

ومجمل القول: شهدت قصائد الديوان مزيجا من الرموز الصوفية المستقاة من التراث والفكر الصوفي والتي أسهمت في ثراء المعاني وامتزاجه بنفحات وعبق رياح الماضي الإسلامي لتأتي كلماته منسابة في سلسبيل من الصور و التي ألقت بصداها على مختلف القصائد التي عبرت عن إيمان وخلجات شاعر يبحث عن ذاته وعن حل لصراع الماضي والحاضر.

-النزعة الصوفية من خلال العتبات النصية:

إن الكتابة الشعرية الحداثية اليوم لم تعد تكتفي بنظام صوتي كتابي، بل تجاوزت مستوى اللغة الصرف لتدخل في عوالم أخرى أسهمت في إنشائها وبلورتها، وسواء أكان ذلك بداهة أو عن سابق قصد، فإن هذا التحول النوعي الجديد أصبح يحدد جوانب أخرى كانت مغفلة، يتلاحم فيها التشكيل اللغوي بالفضاء المكاني لإنتاج رؤية جديدة وعالم أخر للوجود اللغوي بسلطة وتسيير وحكم الوجود البصري أو ما يطلق عليه جيرار جينيت بمصطلح "العتبات النصية"؛ وهي تأخذ دورا أساسا في كل قاعدة تواصلية بحيث: "تمكن النص من الانفتاح على أبعاد دلالية، فالعتبات النصية لا يمكنها أن تكتسب أهميتها بمعزل عن الطبيعة الخصوصية النصية نفسها" (الحجمري، 1996، ص16)

وفي تعريفها هي: "مجموع النصوص التي تحفز المتن وتحيط به من عناوين وأسماء المؤلفين والإهداءات والمقدمات، والخاتمات والفهارس والحواشي وكل بيانات النشر التي توجد على صفحة الكتاب" (بلال، 2000، ص21)، فهي إذن كومة معقدة وإن بدت بسيطة في البداية، فسرعان ما تتحول بنا هذه النصوص الموازية " وتضعنا أمام مأزق الدهشة: لماذا اختار الكاتب هذا العنوان، وما علاقته بالنص؟ هل انبثق العنوان مصادفة أو أن القصدية تمارس غوايتها في هذا المجال ...؟الخ، هكذا تجرنا العتبات إلى دوامة من التساؤلات،

لتشرع من ثمَّ أسئلتها المحفوفة بالقلق، وتنفتح ثقوبها السوداء عن أسئلة ملحة في النشاط النقدي للقراءة.." (حسين، 2004-2005، ص16)

وانطلاقا من هذه القناعة بما تقدمه العتبات النصية من دلالات من خلال مبدإ التأويل يضعنا ديوان مدار القوسين أمام زخم من القراءات المنفتحة على دلالات ومعاني وتساؤلات، ذلك أن ناصر لوحيشي بما يقدمه من مؤشرات نصية مقصودة وبعيدة عن العشوائية يروم جملة من المقاصد البعيدة تقف وراءها اختيارات غير بريئة من لعبة المعاني ولغة الإيحاء والترميز..

- عتبة الغلاف الأمامي:

يعد الغلاف من أهم العتبات النصية بالنظر إلى أهميته وضرورته في عملية الولوج إلى أعماق النص قصد فهم دلالاته والبحث عن أبعاده الفنية والجمالية، وهو: "العتبة الأولى التي تصافح بصر المتلقي لذلك أصبح محل عناية واهتمام الشعراء الذين حولوه من وسيلة تقنية معدة لحفظ الحاملات الطباعية إلى فضاء من المحفزات الخارجية و الموجهات الفنية المساعدة على تلقي المتون الشعرية." (الصفراني، 2008، ص133)

فأول ما تقع عليه عين القارئ هو الغلاف وما يوجد عليه من أشكال وأيقونات وأرقام وألوان وحروف وغيرها، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمتن، فهو "يدخل في تشكيل تضاريس النص بل أحيانا يكون هو المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنص." (بوجفجوف، 2019، ص114)

جاء غلاف مدار القوسين غارقا في اللون الأخضر، لون فاتح هادئ يبعث في النفس الشعور بالراحة والسلام والأمن، ويزرع الشعور بالأمل والسعادة، ويعطي إحساسا بالتغيير والتجدد، وله "ميزة عن بقية الألوان في توافقه مع أغلب الألوان ولا يتنافر معها." (طالو، 1969، ص172)

ويرتبط اللون الأخضر ارتباطا وثيقا بالصوفية وأفكارها، وله مدلولات روحية كونه يرتبط بمراتب النفس، ويرى الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس: " أن النور الأخضر هو لون مرتبة النفس الراضية التي ورد ذكرها في الخطاب الإلهي." (ضاري، ص47)، وهذا اللون النباتي هو " لون النفس النباتية لظهور النورانية فيها " (ضاري، ص45)، كما يحمل هذا اللون بعدا

أخر للوجود لأنه علامة الخصب الذي تنبته تجليات المعرفة في سكرة الصوفي، وله دلالة على توازن الشخصية، وترتمي العناصر الأخرى في حضن هذه الأرضية الخضراء محاولة التمسك بتلك الحبال والثبات عليها، ونذكر منها: اسم المؤلف، العنوان، الصورة، الغلاف الخلفي، .. وغيرها مما يستدعي وقفة تقتضي إنعام النظر تأويلا ورؤيا.

5. خاتمة:

ناصر لوحيشي من الذين يمثلون التجربة الصوفية في الشعر الجزائري، إذ يحمل ديوانه مدار القوسين إلى دلالات صوفية يتعالق فيها الإفصاح الشعري برحلة الارتقاء الصوفي للكشف عن الأنوار الملكوتية.

وحاصل تصوفه تغريد بفضائل النفس والسمو بها في هدوء وارتقاء عن واقع مشوه، إنه تسامي في الكينونة والوجود والرؤيا في بساطة لافتة وصمت صارخ..

يمكن أن نعد التجربة الصوفية عند ناصر لوحيشي وأغلب الشعراء الجزائريين المعاصرين تجربة لا تأخذ بفكرة التصوف كممارسة فعلية حياتية بقدر ماهي تجربة صوفية على المستوى الشعري؛ إذ يمكن القول إنها تجربة تدل على " تصوف شعري " يعيشه الشاعر في مخيلته فأضحى "متخيلا صوفيا" أو "تجريبا صوفيا" أكثر منه تجربة صوفية شعرية بما تعرف به من ممارسات وعمق وبما عرفه شعراء التصوف الجزائريين القدماء، إنها "وعي صوفي" يدعونا إلى مقاربته أكثر والغوص في أغواره برؤية ورؤيا أعمق.

6. قائمة المراجع:

1. إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف (الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر).
2. احمد بهجت: بحار الحب عند الصوفية، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، مصر، ط1، 1984.
3. أسماء خوالدية: الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة و الإغراب قصدا، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2014.
4. حسين خالد حسين: ظاهرة العنونة (البناء والدلالة في الأنواع الأدبية العربية المعاصرة)، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية ،كلية الآداب واللغات، جامعة دمشق ،2004-2005.
5. حمزة حمادة: الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني.
6. حمزة حمادة: الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني، ص285.
7. حنبلي سميرة زوجة زغودي: صورة المرأة عند الصوفيين (دراسة تحليلية لنماذج من الشعر الجزائري الحديث)، جامعة تلمسان، الجزائر، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، العدد1، أوت2018.
8. خالد علي عباس القط: دلالات الأرقام أنموذجا رمزيا في المصطلح الصوفي، جامعة طيبة ،الجزائر، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الانسانية، المعهد العالي للأئمة والخطباء عدد8، 1437 هـ.
9. خالد علي عباس القط : دلالات الأرقام أنموذجا رمزيا في المصطلح الصوفي.
10. الرزاق بركات: أقنعة التراث الصوفي في الشعر العربي والتركي الحديث، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط2 ،2007.
11. زليخة بوجفجوف: الثقافة البصرية وتجليات اشتغال العتبات الشعرية(قراءة في عتبات غلاف المجموعة الشعرية"...مثلا فتقوه"للشاعر الجزائري رشدي رضوان)، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد8، عدد1، 2019.
12. صهيب سعران: مقدمة في التصوف، دار المعرفة، دمشق، ط1 ،1989.
13. ضاري مظهر صالح : دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي، ص47.
14. طالو محي الدين : الرسم واللون، مكتبة أطلس، دمشق، ط3 ،1969.
15. عبد الرزاق بركات : أقنعة التراث الصوفي في الشعر العربي والتركي الحديث.
16. عبد الرزاق بلال : مدخل إلى عتبات النص(دراسة في مقدمات النقد العربي المعاصر)، مطابع إفريقيا الشرق—المغرب ،بيروت،لبنان ،2000.

17. عبد الفتاح الحجمري : عتبات النص(البنية والدلالة) ،منشورات الرابطة، الدار البيضاء ،1996.

18. عبد الله بوقصة: تداوليات الخطاب الصوفي في ديوان أسرار الغربة لمصطفى محمد الغماري، رسالة مقمة لنيل شهادة الماجيستر في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والفنون، جامعة مستغانم، 2009-2010.

19. عبدة غالب أحمد عيسى: مفهوم التصوف، دار الجيل، ط1، 1992.

20. عويدان مسعودة ومفيدة ميزان : فعالية استدعاء الرمز ودلالته الجمالية في شعر عثمان لوصيف من خلال نماذج مختارة.

21. عويدان مسعودة ومفيدة ميزان: فعالية استدعاء الرمز ودلالته الجمالية في شعر عثمان لوصيف من خلال نماذج مختارة، جامعة عباس لغرور،خنشلة، الجزائر، مجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، عدد9، ديسمبر2019.

22. محمد الصفراني : التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث(1950_2004م)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،بيروت، لبنان ،ط1 ،2008.

23. محمد كعوان : التأويل و الخطاب الرمز (قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر)، دار بهاء الدين، الجزائر، ط1، 2009.

24. مرسلي بولعشار: الخصائص الفنية للرمز عند الصوفية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها.